عقيدتي

للفيلسوف الإنكليزي المعاصر برتراند رسل

للأديب عبد الجليل السيد حسن

الفصل الرابع

الخلاص الفردي والاجتماعي

إن إحدى نقائص الدين التقليدي هي فرديته. وهذه النقيصة ترجع أيضا إلى الأخلاق المقترنة به، وكانت الحياة الدينية دائما بالتقليد حواراً بين الروح والله، فإن تطع إرادة الله، فذلك هو الصلاح. وكان ذلك في إمكان الفرد الذي يهمل حالة المجتمع تماما، وقد نشرت الفرق البروتستانتية فكرة « وجود المخلص » ولكنها كانت دائما موجودة في التعاليم المسيحية، وهذه الفردية في الروح المفارق كان لها قيمتها في مراحل معينة من التاريخ، ولكننا في العالم الحديث في حاجة إلى تصور اجتماعي للخير أكثر من التصور الفردي. وأود أن نرى — في هذا الفصل — كيف يؤثر هذا في تصورنا للحياة السعيدة

ظهرت المسيحية في الإمبراطورية الرومانية بين شعوب مجردة من القوى السياسية، قد تحطمت حكوماتها القومية وارتبطت بكتلة ضخمة فاقدة الشخصية، وفي أثناء القرون الثلاثة الأولى من العصر المسيحي، كان الأفراد الذين اعتنقوا المسيحية لا يستطيعون أن يغيروا النظم الاجتماعية والسياسية التي كانوا يعيشون في ظلالها على رغم أنهم كانوا مقتنعين تماما بفسادها. وأثناء هذه الظروف كان من الطبيعي أن يؤمنوا بالاعتقاد بأن الفرد من الممكن أن يكون كاملا في عالم غير كامل، وأن الحياة السعيدة ليس لها شأن بهذا العالم. وقد يتضح ما أعنيه أكثر بالمقارنة بجمهورية أفلاطون؛ فحينما أراد أفلاطون أن يصف الحياة السعيدة، وصف المجتمع ككل لا كأفراد، وقد فعل ذلك ليحدد الدالة التي هي معنى اجتماعي جوهري، فقد كانت حقوق « الجمهورية » مألوفة لديه، وكانت المسئولية السياسية عنده قضية مسلمة، وحينما فقد اليونان حريتهم إلى دور ظهور الرواقية، التي هي — كالمسيحية وليست كأفلاطون — في تصورها الفردي للحياة السعيدة

ونحن الذين ننتمي إلى ديمقراطيات عظيمة، سنجد عند الآثينيين الأحرار أخلاقا أكثر ملاءمة مما نجد لدى الإمبراطورية الرومانية صاحبة السلطان المطلق. وفي الهند حيث الأحوال السياسية مشابهة تماما لما كان في أرض الماد (Judea) (١) في زمن المسيح، نجد غاندي يحث على أخلاق مشابهة جدا الأخلاق المسيح، ويعاقبه من أجلها خلفاء بلاطس Pontius Plate (٢) المسيحيون، ولكن الوطنيين الهنديين المتطرفين، ليسوا راضين عن الخلاص الفردي، فهم يريدون خلاصا قوميا، وهم في هذا قد أخذوا بنظرة الديمقراطيات الغربية الحرة، وأريد أن أذكر بعض الجوانب التي جعلت هذه النظرة — بسبب المسيحية — إلى الآن خالية من القوة والوعي والكفاية، بل ما زال الاعتقاد في الخلاص الفردي يقيدها

والحياة السعيدة كما نتصورها تحتاج إلى عدد عظيم من الشروط الاجتماعية التي لا يمكن أن تتحقق بدونها. والحياة السعيدة كما قلنا هي الحياة التي يلهمها الحب وترشدها المعرفة. والمعرفة المتطلبة لا توجد إلا حيث تقف الحكومات وأصحاب الملايين أنفسهم على اكتشافها ونشرها؛ فمثلا انتشار السرطان شيء مخيف، وماذا يجب علينا أن نعمل بإزائه؟ في الحالة الراهنة لا يستطيع أحد أن يجيب عن هذا السؤال، لنقص المعرفة. والمعرفة ليس من المحتمل أن تظهر وتكتشف إلا بالبحث الموقوف عليها. وصورة أخرى معرفة العلم والتاريخ والأدب والفن، يجب أن يحصل عليها كل من يرغب فيها، وهذا يقتضي استمدادا متعدد النواحي من جانب السلطات العامة، ولا يبلغ إلى ذلك عن طريق التحول الديني. وحينئذ فهاهنا تجارة خارجية بدونها يموت جوعا نصف سكان بريطانيا العظمى. وإذا متنا جوعا، فإن قليلا منا سوف يحيون الحياة السعيدة. ولا داعي لأن نكثر من الأمثلة، ولكن النقطة المهمة هي أنه من بين كل ما يفرق بين الحياة

---

(١) Judea أرض الماد هي الجزء الجنوبي من أرض فلسطين

(٢) الوالي الروماني الذي أسلم المسيح عليه السلام ليهود لصلبه

السعيدة والحياة السيئة ، هو أن العالم وحدة ، وأن الإنسان الذى يدعى أنه يعيش مستقلا طفيلى ، سواء شعر بذلك أم لم يشعر

وفكرة الخلاص التى كان المسيحيون الأولون يعللون بها أنفسهم لخضوعهم السياسى تصبح مستحيلة بمجرد أن نتخلى عن التصور الضيق للحياة السعيدة ، فى تصور المسيحية السليمة Oothrdox أن الحياة السعيدة هى حياة الفضيلة والصلاح ، والفضيلة فى إطاعة إرادة الله ، وإرادة الله تتضح لكل إنسان خلال صوت الضمير ، وهذا تصور أساس خاضعين لسلطة مطلقة أجنبية مستبدة، والحياة السعيدة تشمل كثيرا ، بجانب الفضيلة — الذكاء مثلا . وكثيرا ما يكون الضمير مرشدا مضللا ، لأنه يتضمن ذكريات غامضة لمدركات منذ الطفولة ، ولذلك فهو ليس أحكم من صاحبته المربية أو الأم . ولكى يحيا المرء الحياة السعيدة بأتم معانيها ، يجب أن ينال قسطا وافرا من التربية، وأن يكون والأصدقاء والحب والأطفال — إذا أرادهم — ودخل كاف ليحفظه من العوز والقلق، وصحة جيدة ، وعمل ليس بالملل . وكل هذه الأشياء بدرجات متفاوتة، وتعتمد على المجتمع؛ وتساعدها أو تعوقها الأحداث السياسية. والحياة السعيدة لا تكون أبدا إلا فى مجتمع سعيد ، وليست بممكنة فى عالم ليس كذلك

وهذا نقص أساسى فى المثل الأرستقراطى الأعلى ، فبعض الأشياء الصالحة مثل الفن والعلم والصداقة ، يمكن أن تزدهر أيما ازدهار فى مجتمع أرستقراطى ، فقد وجدت فى اليونان على أساس الرق ، وتوجد بيننا على أساس الاستغلال والتسخير ؛ ولكن الحب فى صورة المشاركة الوجدانية وحب الخير لا يمكن أن يوجد وحده طليقا فى مجتمع أرستقراطى . فالأرستقراطى يقنع نفسه بأن الرقيق أو الأجير أو الرجل اللون من طينة أدنى فإيذاؤهم لا يهم وإن الرجل الإنجليزى المثقف فى الوقت الحاضر ليضرب الإفريقيين بشدة ، حتى أنهم يموتون بعد ساعات من الألم الفظيع . وأنا لا أستطيع أن أقول إن هؤلاء المهذبين — حتى ولو كانوا متعلمين جيدا وفنانين ومحدثين لطافا — يحيون حياة سعيدة ؛ فإن الطبيعة البشرية لتضع بعض الحدود للمشاركة الوجدانية ، ولكن ليس بدرجة مثل هذه . وفى المجتمع ذى الوعى الديمقراطى لا يملك هذا الملك إلا المهووس (Maniac) وتحديد المشاركة الوجدانية التى يشتمل عليها المثال الأعلى الأرستقراطى هو وسطها . والخلاص مثال أرستقراطى لأنه فردى، ولهذا أيضا لا تصلح فكرة الخلاص الشخصى — مهما أولت ووسعت — لتعريف الحياة السعيدة

وطابع آخر من مميزات « الخلاص » وهو أن ينجم عن تغيير محى (نتيجة محنة) كتحول القديس بولص (Saint paul). وأشعار « شلى » تقدم صورة لهذا المعنى تنطبق على المجتمعات ، فاللحظة تحين حين يتغير كل إنسان « وتطير الفوضى واختلال الحكم » « ويبدأ عمر العالم العظيم من جديد» ولكن: قد يقال إن الشاعر ليس بذى أهمية ، وأفكاره لا نتيجة لها ؛ ولكنى أقول: إن جزءا كبيرا من القواد الثوريين كان لديهم أفكار مثل ما لدى شلى إلى حد بعيد ، فقد فكروا فى أن البؤس والقسوة والانحطاط ترجع كلها إلى الظلمة ، أو القس أو الرأسماليين ، أو الألمانيين . ولو طرحت منابع الشر هذه لحدث تحول عام فى القلوب ، ولعشنا جميعا سعداء أبدا . ولاعتقادهم فى مثل هذه الاعتقادات فقد أريد منهم أن يستمروا فى « الحرب حتى تنتهى الحرب » وبالمقارنة نجد أن المحظوظين هم هؤلاء الذين عانوا الهزيمة والموت ، وهؤلاء الذين حالفهم سوء الحظ ، فظهروا كمنتصرين ، كانوا فى حاجة إلى شئ من احتقار اللذات أو الكلبية Cynicism المسيحية ، وكانوا يائسين بتحطيم كل آمالهم البراقة ، والمنبع النهائى لهذه الآمال كان العقيدة المسيحية فى التحول المحى كطريق للخلاص

وأنا لا أريد أن أقول إن الثورات ليست بضرورية مطلقا ، بل أريد أن أقول إنها ليست أقرب الطرق إلى عودة المسيح(٣) « mileonium » وليس هناك من طريق مختصر إلى الحياة السعيدة سواء أكانت فردية أم اجتماعية ، ولكن لكى نشيد حياة سعيد علينا أن نشيد الذكاء وضبط النفس والمشاركة الوجدانية ، وهذا أمر كمى؛ أمر إصلاح تدريجى وتدريب مبكر وخبرة تربوية. والذى يجعل مكانا للاعتقاد فى الإصلاح الفاجئ هو عدم الصبر فقط ، والإصلاح التدريجى الممكن ، والطرق التى يبلغ إليه بها، أمور قد تكفل بها علم المستقبل ، ولكن فى مقدورنا أن نقول شيئا الآن، وطرفا مما يمكن قوله . وسأحاول معالجته فى فصل ختامى

عبد الجليل السيد حسن

---

(٣) يعتقد المسيحيون أن المسيح سيعود إلى الأرض ويحكمها مدة ألف عام ويملؤها عدلا بعد أن ملئت جورا وتدعى هذه الفترة mileonium